يوحنا الدمشـــقي

JOHANNES DAMASCENUS

للدكتور جواد علي

عجيب أمر أولئك المسلمين ! كانت صدورهم والله رحبة أرحب من صدور أهل القرن العشرين . هذا يوحنا الدمشقي "John. of Damascus" أحد آباء الكنيسة اليونانية وأحد كبار القديسين يطعن في عقيدة المسلمين ويؤلف الكتب في الرد عليهم ويجادل علماءهم في صحة دعوى النبي العظيم ، وهو مع ذلك موظف من كبار موظفي بلاط أمير المؤمنين ، ورجل من ذوي الحل والعقد في دمشق عاصمة خليفة رسول رب العالمين .

عاصر يوحنا الدمشقي أو منصور بن سرجيوس "Sergius" المعروف « بينبوع الذهب » الخلفاء الأمويين وجالسهم وعمل لهم في دولتهم وكانت له دالة عليهم[١]، كما كانت لوالده «سرجيوس» حرمة في نفوس العرب ومنزلة انتقلت إلى ابنه من بعده . كان سرجيوس هذا من الموظفين المشهورين في العهد البيزنطي ومستشاراً مالياً معروفاً ، شهد الفتح الإسلامي لسورية وظل محافظاً على منصبه هذا حتى في الإسلام[٢] . ولعله كان موظفاً في عهد عبد الملك بن مروان[٣].

أما ولد يوحنا فقد كان من المقربين إلى الخليفة يزيد بن معاوية والأثيرين عنده . ولما توفي والده خلفه في منصبه المالي الكبير وظل في هذه الوظيفة حتى خلافة هشام (٧٢٤ — ٧٤٣) إذ ترك الدنيا والمركز الحكومي معاً لينصرف إلى إعداد مايلزم لحياته الثانية ، الحياة الآخرة في دير من أديرة فلسطين[٤] .

ولم تصرف الوظيفة وجلالها يوحنا عن العلم والكنيسة التي كوّنته وصقلت عقله . بل على العكس من ذلك اتخذ الوظيفة وسيلة للكنيسة والدين . وسيلة يتقرب بواسطتها إلى الرؤساء والزعماء ليخفف من شدة حدتهم إن كانت هنالك حدة ضد المسيحيين عامة وضد الأرثوذكس وضد البيزنطيين على الأخص ، ولذلك كان رسولا سياسيا ودينيا في بلاط الخليفة في نفس الوقت[٥] . وقد عرف البيزنطيون ما حصل عليه قديسهم هذا من منزلة في بلاط « ملك العرب » المسلمين « Saracens » ولا سيما رجال الدين منهم وساسة الحكومة فكلفوه بمهمات صعاب مختلفة ووسطوه لحل مشاكل دولية معقدة . حتى تصوروا أن مركزه في سورية كان يضاهي مركز الخليفة بدليل إغداقهم عليه الألقاب التي كانوا يلقبون بها عادة خلفاء المسلمين ، ونعتهم إياه بالنعوت التي كانوا ينعتون بها عادة آل أمية ملوك الشام[٦].

ونال يوحنا من تقدير رجال الدين والكنيسة ما ناله من تقدير الدولة البيزنطية وجماعة الحكومة . فان لقباً عظيماً هو لقب « قديس » ولقب بلقب آخر جميل اللفظ والمعنى هو لقب « يوحنا ينبوع الذهب »[٧] وخصصت له الكنيسة الأغريقية يوم ٤ دسمبر ويوم ٦ مايو ليكونا عيدين خاصين بهذا القديس[٨]. الذي برع في علم المنطق والفلسفة وفي الثقافة اليونانية ، والذي اتخذ من المنطق سلاحا يدافع به عن الكنيسة ، والذي فلسف الكنيسة الشرقية وأخضع المعارف الأغريقية الوثنية لحكم سلطان الدين المسيحي[٩]

ووهب الله صاحبنا بصراً في العلوم الزمانية فاق بصره في العلوم الدينية . برع في علوم زمانه وتقدم على أقرانه وخلاّنه . وألف كتابه الشهير المعروف باسم « ينبوع الحكمة » اقتصر في القسم الأول منه على محاورات أرسطو . وقد جمع العلامة لوكيان

---

(١) راجع The Encyclopaedia Britannica 14. ed vol. 13. p. 102. كذلك كتاب المخطوطات العربية لكنيسة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعي بيروت ١٩٢٤ ص ٢١٧ .

(٢) راجع Hitti, History of the Arabs p, 246 . ولكنه يقول كان جده منصور بن سرجيوس والصحيح أن منصور هو اسم يوحنا العربي وأن سرجيوس هو اسم والده . راجع دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٤ ج ١٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

(٣) Becker. Islam Studies val g p 434 ١٧ ، ٢٤

(١) Hitti. p, 246

(٢) Islam Studies vol 1 p, 434 M. 94 449.

(٣) راجع Islam Studies. vol 1 p, 434 وكذلك مباي M. 94 449

(٤) The Encycl Brit. vol 13 p, 102 Harnacks, History of Dogmatroversy, IV p, 322

(٥) دائرة المعارف البريطانية ج ١٣ ص ١٠٢

(٦) Textbook of the History of Philosophy, p, 227

تآليفه اليونانية ونشرها فى « مجموعة الآباء اليونان »[١]. والعلامة الفرنسى « لوكوين » Le Quien[٢].

وهو بحملته وتفصيله مرآة صافية للكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فى معلوماتها ومعارفها فى ذلك العهد . وبحكم مقامه فى الخط الأول من خطوط القتال بين الإسلام والنصرانية اضطر إلى دراسة الأسلحة التى شهرها المسلمون على المسيحيين وعلى التنقيب فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول وفى سيرة النبى وأصحابه من الأنصار والمهاجرين لعله يجد نقصاً أو ضعفاً يتخذه هدفاً يهاجمه أو ركناً يبنى عليه خطة هجومه على المسلمين بدون شفقة أو رحمة وهوادة .

بهذه الروح اعتكف يدرس القرآن الكريم والحديث النبوى وهو فى عصر كان فيه أصحاب رسول الله أحياء يرزقون ، حتى إذا ما حفظ القرآن وما شاء من أحاديث انطلق كالأسد يزأر فاتحاً فكيه يريد موضعاً سهلا يغرس فيه أنيابه من جسم المسلمين .

بتلك الروح صار يفلى آيات القرآن الكريم ويبش فى ثنايا أحاديث الرسول وأخبار أصحابه من المهاجرين والأنصار لعله يعثر على ذلك الموضع السهل الذى يهجم منه على الإسلام ، أو يمكن الطعن فيه بسلاح المنطق اليونانى الذى لم يتمرن العرب عليه ولم يكن لهم به خبرة أو إلمام ، والذى صوّبه الوثنيون إلى النصارى فمضى مدة فى جسم الكنيسة حتى إذا ماتعلمه رجال الدين استخدموه لمحاربة خصوم الدين . وفى الفصل ١٠١ من رسائله وفصوله (بالآرامية، ميامى) ، وهو الفصل الذى عنونه بهذا العنوان (De Hearesibus) ، وفى مناظراته الكثيرة معلومات غزيرة تدل على اطلاع واسع على تاريخ المسلمين[٣] .

استشهد مثلا فى الفصول التى كتبها دفاعاً عن المسيحية التى كانت تحتضر فى سورية ومصر وفلسطين وفى المناطق العربية الأخرى بآيات من القرآن الكريم وبكثير من الأحاديث لإثبات وجهة نظره ولمناقشة المسلمين بتلك المصادر فى صحة دعواهم على طريقة استخدام الكليات والجزئيات والمقدمات والنتائج والحوار والمناظرة .

وبالنظر إلى جهل أبناء دينه بأسباب الجدال الدينى وبالبراهين العلمية المنطقية فإنه وضع لهم كتابا فى المناظرة على طريقة السؤال والجواب على هذا النسق : « إذا سألك العربى كذا فأجبه بكذا وليس بكذا »[١] ، وشدد على إخوانه بوجوب حفظ هذه المحاورة واتباعها حرفيا وشدد فى تحريم مبادرة العربى بالسؤال خوفا من الزلل والوقوع فى مهاوى الضلالة ، ومن الارتباك الذى قد يؤدى إلى تغلب العربى على المسيحى فى النهاية .

وهذه الرسالة حوار (Dialogue) بين عربى مسلم وبين مُسيحى جمع فيها أكثر ما كان يدور فى خلده وفى خلد الجدليين من أسئلة ومن أجوبة ومن فروق بين الديانتين . خذ مثلا لذلك ما جاء فى طبيعة المسيح . قال : « إذا سألك العربى ما تقول فى المسيح ؟ فقل له إنه كلمة الله . ثم ليسأل النصرانى المسلم : بم سمى المسيح فى القرآن ؟ وليرفض أن يتكلم بشىء حتى يجيبه المسلم فإنه سيضطر إلى أن يقول : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه »[٢]. فإذا أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله إذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح، فإن قلت ذلك فسيفحم العربى ، لأن من يرى هذا الرأى زنديق فى نظر المسلمين»[٣].

وفى موضع من مواضع الرسالة يجيب على اعتراض المسلمين على المسيحيين فى قضية عبادة الصليب وتقديسه بقوله : « أنتم تنكرون علينا تقديس الصليب وهو من خشب ، فى حين أنكم تقدسون حجراً أسود هو رأس « أفروديت » Aphrodite »[٤]. ثم يستمر فيقول : « وتدعون بأنكم إنما تقدسون هذا الحجر الأسود لأن ابراهيم الخليل على زعمكم كان قد اضطجع عليه أو

(١) دائرة المعارف البريطانية جـ ١٣ ص١٠٢ كذلك الأب لويس شيخو ص ٢١٧ أيضا Migne, Patrol Greac XCIV (421—489)

(٢) Le Quien 2 vol, fal, Paris I 712.

(٣) راجع ميامى ٥ ٥ M 94 1585 ff 96 1335 ff كذلك Islam Studies p, 434 f vol 1

(١) Islam Studies vol, 1, p, 435 دائرة المعارف البريطانية جـ ١٣ ص ١٠٢ J, Hell, The Arabic Culture, p, 75

(٢) سورة النساء آية ١٧٠

(٣) الترجمة نقلا عن كتاب تراث الاسلام جـ ١ ص ٢٤٧ . راجع « أيضاً ميامى ٥ » وكذلك Islam Studies vol , 1, p, 437

(٤) كان اليونان يزعمون أن العرب كانوا يعبدون إلهين هما « افروديت » و « باخوس » وظن صاحبنا أن الحجر الأسود هو رأس أحدهما وهو افروديت . راجع تاريخ هيرودوتس M, 94, 769

لأنه ربط به الناقة حينما همّ بذبح اسحاق . وتسخرون منا لأننا نقدس الصليب الذى صلب عليه سيدنا عيسى المسيح»[١]، وقوله هذا ظاهر البطلان لم يأت فى القرآن الكريم ولا فى الحديث الشريف[٢]

جاء فى القرآن الكريم : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا[٣]»وهذا معناه عدم اتفاق وجهة نظر المسلمين مع المسيحيين فى دعوى صلب المسيح . وذهب صاحبنا مذهب المغالطة والجدل الصورى فعمد إلى التفسير وإلى الآية التالية مدعيا بأن فى «ولكن شبه لهم » غموضا تفسره الآية التى بعدها « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما»[٤] وفى هذه الآية على زعمه من الاعتراف بصحة الصلب والصليب ما لا يخفى .

ثم يقول : « وتدّعون أيضا بأن الذبح ، أى ذبح ابراهيم لإسحاق ، إنما كان فى مكة ، ومكة بلد غير ذى زرع ، وهذا موضع لا ينطبق عليه ما جاء فى التوراة ، وهو كتاب الله ، إذاً فمكة ليست بذلك المكان»[٥]. ومن الأبحاث الأخرى التى تعرض لها هذا القديس مبحث تعدد الزوجات ، وبعد أن ذكر نص الآية التى حددت عدد الزوجات[٦]، وبعد أن ترجمها ترجمة حرفية[٧] بحث فى الطلاق ، وانتقل إلى زواج النبى بزينب وتطليق زيد لها[٨] ، ثم تحدث عن« التجحيش » بعد الطلاق الثالث[٩] وعن قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدّموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين»[١٠].

ويبحث فى قضية عويصة ، هى قضية حرية الإرادة والجبر والاختيار« مشكلة القدر » ، وكانت قضية القدر من أهم المشاكل التى تعرض لها العصر الأموى لما كان لها من ارتباط بالوضع العام والسياسة فضلا عن الدين .

قسّم يوحنا العالم إلى فريقين : فريق دان بعقيدة « الجبر » والضرورة وهو فريق المسلمين ، وفريق دان بحرية الإرادة أو بالقول «بالاستطاعة» وهو فريق المسيحيين . وبعد أن ذكر أن المسلمين قاطبة كانوا يدينون بعقيدة « القدر خيره وشره من الله » . وذلك على عكس مدلول الكلمة والمعنى الذى خصصت به فيما بعد . قال : « إنهم إذاً بقولهم هذا ينسبون الشر والقبيح إلى الله » . ولماذا ؟. يجيب على هذا الإعتراض بهذه الصورة . « هل يمكن أن يكون الله هو العلة والسبب والفاعل لكل شىء حتى المكروه ؟ يقول المسيحيون لا ، لأن الله لا يمكن أن يكون خالقاً للقبيح أو الشر — إذ يكون حينئذ ظالماً ومن المحال أن ينسب الظلم إلى الله . إن الله جل جلاله يجازى الظالمين والآثمين فكيف يجوز أن يجازى الله شخصاً أمر أن يقوم بعمل فقام به ، أو يكون العقاب فى الدنيا فضلا عن ذلك عقاباً موجهاً من إرادة الله تعالى ، فالله أراد أن يكون ذلك الرجل شريراً فأصبح شريراً ومن الحيف إنزال العقاب بشخص لم يكن له فى العمل أى استطاعة أو اختيار»[١].

يقول يوحنا بعد ذلك « وسيتعجب العربى من هذا القول ، وسيقول لك ولكنك أشركت من حيث لا تدرى، وعلى المسيحى أن يجيبه فوراً ولكنك نسبت الظلم إلى الله من حيث لا تدرى . ثم ليباغت المسيحى المسلم بهذا السؤال : من خلق نطفة ولد الزنا فى بطن أمه ؟ سيقول المسلم : الله . وعلى المسيحى أن يرد عليه بقوله : إن الزنا عمل قبيح وهو فى حد ذاته شر ، فالله على قولكم إذاً ساعد على هذا الشر ، وهو أمر لا يليق بالله تعالى»[٢].

ويجيب يوحنا على لسان المسيحى بهذا الجواب « إننا معاشر النصارى نعتقد بأن الله لم يخلق شيئاً بعد أسبوع الخلق الأول . وإنما أمر الله عبيده بعد ذلك بالاستمرار على التكاثر والإنتاج . فجعل فى صلب آدم أبى البشر قدرة الإنتاج وأصبح الإنسان منذ ذلك الحين منتجاً»[٣].

---

(١) Islam Studies, vol 1, p, 437, M. 94, 769

(٢) Islam Studies, p, 437 راجع المصادر الاسلامية

(٣) سورة النساء آية ١٥٦ .

(٤) سورة النساء آية ١٥٧ .

(٥) Islam Studies, vol, 1, p, 437

(٦) راجع سورة النساء آية ٣ .

(٧) راجع وسط ميمى M, 94, 769,

(٨) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٩) سورة البقرة آية ٢٢٩ .

(١٠) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

---

(١) Islam Studies, vol, 1, p, 440

(٢) M, 94, 1590 ff, Journal Asiatige, 57, 397

(٣) M, 94, 1593,